بطاقة معايدة

قصة بقلم محمد رؤوف بشير

التهاني مكومة في درج المكتب ، رسائل وبطاقات ، تنتظر منذ أكثر من عام ، ترقبني بحذر المحب الخائف لومة العذال ، أو خيبة الامل :

نظرت اليها ، كل منا يحاور صاحبه ويداوره بطريقة ، او باخرى ، هي تريد ببهرجها من اللباس والكلام المنمق أن تمحو الاسى ، ولو بعض الاسى المنغرس في الاعماق اسفينا حادا من التمزق والضياع أحس به ألما متشعبا كالاخطبوط يحيط جسمي ، يمتص دمي بألف ذراع وذراع .

وانا أشفق عليها وعلى نفسي من المحاولة ، أسخر باكيا ، ما أقسى الدموع ضاحكة تسخر . لا لن أجيب عليها ، لن أرد ، ماذا أقول ؟ ..

عشرون عاما وأوتاد الموت البطيء تنغرس رويدا ، رويدا في قلوبنا، في عيوننا ، في كرامتنا الانسانية ، وأنواع المخدر تنسينا مواطن الجرح في وجداننا .

صحوت فجأة ، لسعة العقرب ، عضة الثعبان توقظ حتى الميتين ، وأنا لم أمت ، السم القليل لا يميت ، يشل ، والشلل صعب الشفاء ، يحتاج الى زمن ، الى علاج ، لا بد من علاج .

الخامس من حزيران ، يا عقربي اللذيذ ، وأفعى الكوبرا ، تلتف حولي ، تعصرني ، تضغط عظامي المنسحقة فرقعة وتكسرا لها دوي انفجار البراكين .

وتطل من بين الرسائل سيدة ، تزحف امامي على الطاولة ، باكية ذليلة ، بطاقة عطرة مذهبة ، أختي هذه ، غاضبة عاتبة .

« ـ قرابة العامين لم ترد ، لم تكتب ، وأنا أزرع أطفالي واشواقي كلمات تنتظر الصدى رجع الصدى ، وأنت مفرق في الصمت ، مثل الكهف العتيق ، كبئر ، كواد سحيق ، مثل المقبرة ، فالقبور وحدها لا تتكلم ، تبقى صامتة ، لا تجيب على الرسائل ، لا تخط بطاقة . » .

ويشيع هذا الكلام في اختها الجرأة ، فتنسل من بين الرسائل تقترب مقطبة ثائرة ، انه اخي ، سطوره فيها عتاب وقسوة ، واصرار لجوج على الكتابة ترجوني .

« ـ بهجة العيد يا أخي في « حلب » في بيتنا الاخضر حلم وردي الجناح ، تقص جناحيه ، أرسله مع النسيم ، ضع في منقاره العذب بطاقة ، علمه الكلام ،سطره رسالة ، صورة ، أرسمه كلمات قليلة .

زوجي المريضة لا تستطيع السفر ، وأولادي الصغار ثقل تنوء بحمله السيارة ، لا تبخل يا أخي سأدفع اجرة الساعي والرسالة . » .

العيد عندنا يا أخي ...

سأمسح على الجراح ، أرش عليها دواء ، سأخدرها ، ما زلت أملك المقدرة ، ولو لفترة محددة صغيرة . الاستمرار ، الادمان هو وحده الذي سيقتلني ، وأنا لن امنح روحي هذا الشعور سوى مرة واحدة ، على صفحات رسالة قصيرة .

بدأت يوم العيد كما عهدتني منذ أن كنا أطفالا صغارا ، نهضت من السرير ، لا بد أنني تأخرت ، هذه عادتي لم تتغير ، اقتربت من النافذة ، شمس الشتاء شلال فيروز ندى ، نسيجه من خيوط الشمس، من ندى المطر الليلي ، من اخضرار الصنوبر والارز في حديقة السبيل الراقصة .

التفت الى الوراء ، ـ بهرني الجمال العسجدي ، سرير زوجي خال ، والساعة المعلقة الى الجدار تشير الي باصابعها ، تدمغني بالكسل ، تؤكد انني تأخرت كثيرا ، في الاعياد لا يتأخر المرء في النهوض ، لا يجوز أن يتأخر .

ونظرت الى النافذة من جديد ، الشلال ، أين الشلال ؟ ، غاضت مياهه ... ، حديقة السبيل الواسعة ، رئة مدينتي الفارقة في الدخان تمزقت ، شجيرات الارز الغضة اقتلعت ، الارض قفر الا من الخيام،بقايا خيام مهترئة ، وجثث أطفال وشيوخ مبقورة ممزقة لم تترك منها الحشرات والهوام غير عظام نخرة .

تراجعت الى الوراء ، ابتعدت عن النافذة أمسح عن عيني بقايا كابوس ثقيل .

وأطللت برأسي من فتحة الباب باذن مرهفة ، وعين نصف مفتوحة خشية ان يلمحني احد من العائلة قبل ان يكتمل مظهر العيد الذي لا بد أن ألبسه أو يلبسني ، فأقضي بقية أيامه متجهما ، لاسباب لم أدر كنهها حتى الان .

تسللت الى الحمام ، حلقت واغتسلت ، ثم قفلت راجعا الى غرفتي .

نظرت الى المرآة ، لقد اكتمل الهندام ، فانفرجت أسارير وجهي عن ابتسامة رضا ، ابتسامة عيد طفولية تدعو الى الدهشة عندما ترتسم هذه البراءة على وجه انسان قارب الاربعين وعبرت الردهة الى « الصالون » ، الجميع بزينتهم الكاملة يتوسطهم أبي ، بينما التف اولادي من حوله ، وجلست زوجي نصف عابسة ، نصف ضاحكة ، ويا لهما من نصفين اذا تشابكا واختلطا في وجهها فلا احد يدري عندها ، هل هي باسمة او غاضبة ، في خضم من عصبيتها العاتبة بسبب تأخري في اول يوم العيد .

وتبادلنا التحية قبلات مطبوعة سلفا على الوجه واليدين ، ثم التفت أبي قائلا :

ـ الطقس جميل ... ويبدو ان جميع ايام العيد ستكون ربيعية مشرقة .. وغمرتني لهذه النبوءة موجة من الكآبة !. ، كنت ارجو ان تكون الايام ماطرة مثلجة ، لعلني أجد فيها بعض العذر فاعتصم في البيت ولا اخرج لهذه المعايدات التي بدت لي جوفاء ، خالية من اية صميمية او معنى .

تأملت أولادي ، حبة الفؤاد ، تمشي على الارض ، لا اخالك قد نسيتهم ، « أمل » و « سوزان » واقفتان تتمسحان باذيال جدهما كقطتين مدللتين ، و « سامر » يحبو كالارنب الصغير ، ينتصب على قوائمه ، يتعثر في خطواته ، يعود الى حبوه الضاحك من جديد .

الربيع الطفل في حلته الانيقة الغالية ، فما يزال التقليد الذي عرفناه منذ طفولتنا يحمل الينا الجديد في كل عيد ، رغم احساسنا بالضائقة المالية تقودنا احيانا الى الحرج .

خيبة الامل مريرة ، فيها قسوة سكين مثلمة وهي تحز في البدن العتيق ، في شجرة هرمة ، ماذا لو ان بعض الظروف ، ظروفا قدرية ، اخرجتنا ولو مرة واحدة من فريضة الجديد يرتديه كل فرد منا وقد أضحى هذا التقليد جزءا من شخصيتنا ، من نفوسنا .

نفوسنا تتساقط ، تهوي قطعا ، انحني التقطها ، اجمعها ، اعيد تركيبها ، الملابس الانيقة الغالية يتمزق نسيجها ، ينحل ، يتبخر ،

رائحة الصوف المحروق ، تخدش الكبرياء ، تجرحها ، واولادي حفاة أكل العري لحمهم ، فبدت وجوههم ، صفراء باهتة ، افقدها الجوع والمرض، نضارة الربيع واشراقة الامل ، وجوها شتوية ماتت فيها كل معاني الحياة .

رنين جرس الباب ، صوت ملاك ايقظني من احلامي البائسة ، نفر المهنئين يقبل سريعا ضاحكا يومض بالفرحة ، الراحة لمقدمهم تمنح جسدي المنهك نوعا من الطمأنينة الساكنة ، انا لن اغادر المنزل لليوم الاول على الاقل ، فوالدي كبير العائلة ، ولا بد ان يزوره الاقرباء الاصغر منه سنا يهنئونه بالعيد .

اعتصمت بجانبه ، في الركن البعيد ، قرب المرآة المذهبة .

مجرد الرد على عبارات المناسبة المجاملة ، فقاعات الهواء تطفو على سطح الماء زبدا رخوا ، فيها سهولة ويسر فعل انعكاسي ، ومعنى الفراغ المجوف في كلام لا يصدر عن العقل او الروح .

المهنئون يكثرون ، يتزايدون ، رائحة وجوههم المحلوقة ، تمتزج بدخان التبغ المحروق والقهوة المحمصة الطازجة ، فيها لزوجة مسيل زفت تقذفه براكين متفجرة ، فيسمع لها دوي مكتوم كالزعيق في حنجرة المشدودة ، الطائرات تقصف مصر ، العدو يطأ القدس ، الدبابات تتسلق المرتفعات .

جيوش البوم والخفاش تزحف مع الظلام ، وأنا وانت وأسرتنا لسنا في « حلب » و « دمشق » نحن من سكان « غزة » و « نابلس » او « القنيطرة » ، آه يا قدسنا ، الجرح ينزف ، ضع يدك فوقه ، لملم حوافيه المشرشرة، جرحا عميقا منذ ما قبل الخمسين ، ولنا بيت وبيارة، في « حيفا » و « يافا » ، في « تل ابيب » وجحافل الليل البهيم والغازات السامة ، قذائف « النابالم » فوق رؤوسنا ، تحرقنا ، تشوي لحومنا ما اشنع لحم الانسان المشوي ، ما أقساه ، النار تلتهب في برتقالنا الاخضر والوردي .

هل متنا ، ليته كان ، الموت امنية ترتجى ، وراحة بعيدة المنال .

قبضوا علينا ، على الوجوه ، تحت النعال جرونا ، فقأوا عيوننا سملوها ، لا لم يفقؤوها ، فتحوها بقوة بشدة ، وسعوا احداقنا ، انوارا كشافة ، ما كان بهم الى ذلك حاجة ، زوجاتنا هنا امامنا ، اخواتنا أبناؤنا ، سبايا للبغي للطغيان للبرص من الغرب والشمال .

جرعة المخدر ما اقلها ، ما اضعف تأثيرها ، ما اقصره .

آلاف السياط تلهب ظهري ، تشل يدي ، تقتلع الاظافر ، ذراعي الاخرى تكتب تسطر على الورق ، على وجهي بقية الرسالة خزيا وأسى.

في أي عيد نحن ، هل كانت لنا أعياد ، أما زال في جعبة الزمن الفقير منها شيء ، لقد افلست ـ اعيادنا .

ستقول انني أهذي . انت اليوم في « دمشق » تنعم في قصرك في « أبي رمانة » وأنا ، أين أنا ، في « حلب » أطل من نافذتي على حديقة السبيل الواسعة استنشق عبق الازهار والرياحين نقود سياراتنا الفارهة ، ونرتدي الثياب قشيبة لكل عيد .

نحن لم نكن يوما في فلسطين قبل الخمسين ، لم نولد في الجراح الدامية ، و « نابلس » و « القنيطرة » وسواها بعيدة ، ما تزال بعيدة في تيه نفوسنا الغائرة .

كلا .. ، أنا لا أهذي ، انت قابع في بيتك على مرمى الدمار الاكيد ، وانا اقاتل منذ صبيحة الخامس من حزيران .

في صبيحة الشؤم اللذيذ بسطت جميع ما لدي من خرائط لبلادي على أرض البلاط ، بلاط قصرنا الكبير ، وزحفت فوقها أمسح الحدود ادمرها ، ـ غدا سأبتاع خريطة زاهية لوطني الكبير ـ ستة أيام وأنا أحارب مع المذياع ليل نهار ، في سيناء ، في الاردن ، وعلى الهضاب ، وانساح الدم من جراحي ، من آلامي المزقة في كل شبر ، فوق كل ذرة من ترابنا ، واستشهدت ، قتلت اكثر من مرة ، وعادت الي الحياة .

وعندما تداعت الاحلام سراعا كأوراق الورد ، أكلت خرائطي ، ابتلعتها في جوفي ، ومن يومها لم أعد أصحو الا على ابر الطبيب وأصوات الهستيرية .

لقد سقطت بلادنا ، تهاوت كقلعة رائعة المظهر دون اساس ، والوف من شبابنا العاطل ، مرض وهو يقاتل على الخريطة ، او يلعب البطاولة في المقاهي يقرقر بالنرجيلة يحلم بالنصر ، او يتناسى الهزيمة .

مزيدا من المخدر يا طبيبي ، مزيدا من الحقن القاتلة ، اغان مائعة، وقصص جنس ، وسيقان عارية .

فها هنا الكتاب امامي ، ما زال ينتظر الجواب ، يرمقني مستعجلا، يحن الى ايام العيد في بيتنا بلهفة الظامىء الى قطرة ماء .

كم من شريد ، يقضي الايام وحيدا بلا فرحة ، بلا عيد ، كم جندي قضى في سيناء من الظمأ ، الشمس تحرقه ، الارض تلفظه ، وابواب الجحيم مفتوحة ليس فيها ولا ذرة من بخار الماء ؟.

اليوم الاول من العيد مضى على خير ، ـ كل عام وانتم بخير ـ ، ما اسهل الترداد على الببغاء ما أحسنه .

وجاء اليوم الثاني .

حجج الاعتصام بالبيت تتهاوى ، تقاطيع ابيك المتجهمة تدفعني امامها تلكزني .

ـ رد الزيارات في العيد واجب وسنة ، وعتاب الاقرباء سوط معقد لا يرحم .

في دوامة جانبية أنا ، في ارجوحة ، في ناعورة الآدميين ، ارتفع تارة واهبط ، وقلبي يتوقف على الدرج مع أبيك ، في الصعود والنزول وهو يلهث ؟ .

ـ لقد ادركك الكبر يا ولدي ... وها هو الشيب يرسم خطوطه المبكرة ..

ـ كل عام وأنتم بخير ...

ـ وانتم .. العيد القادم في عرفات ان شاء الله ..

وكدت اصرخ :

ـ لماذا ليس في القدس ؟.. لماذا ؟..

جمعا ، حرما ، اعاده الله علينا وعليكم .

ـ كفى .. لا أعاده الله ونحن اما لاجئون ، او نازحون ..

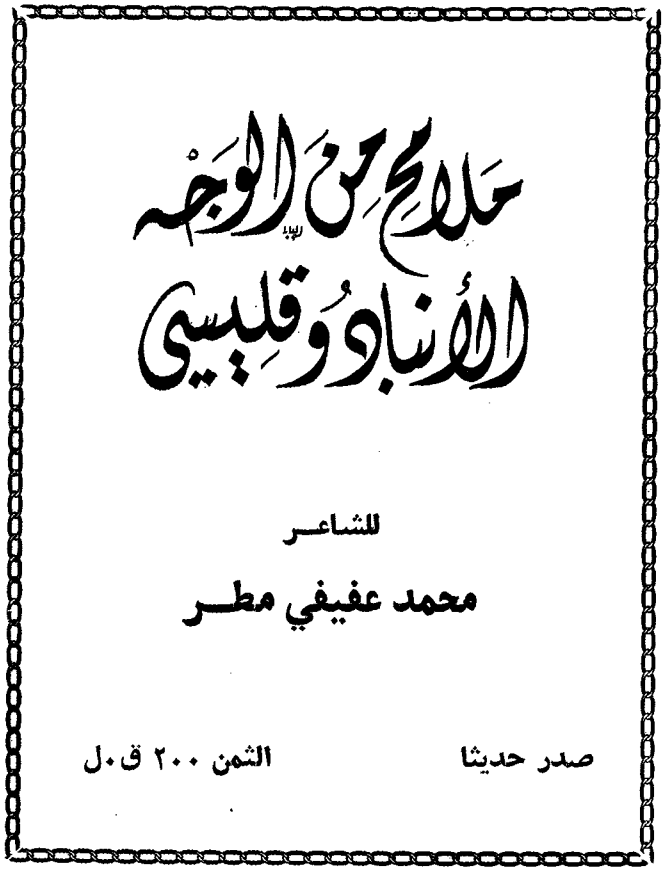

تسميتان لمأساة واحدة ، لم هذه الازدواجية ، المأساة لا تتدرج ، لا تنفصل ، هي كلمة واحدة كالفضيلة ، كالمرأة ، اما عذراء بكر أو ...، تجوب الشوارع بلا وطن ، بلا منزل ، بلا هوية .

وتطوف علينا الايدي مع التهاني ـ ما أكثر عبارات التهاني في بلدنا ـ بالقهوة المرة منها ، ـ والمحلاة لتتبعها بالسكاكر و « راحة الحلقوم » ، هذه الاخيرة ودون سواها أعجبتني ، فهي تنزلق الى الجوف حلوة طرية .

وأنا وأنت متى نجد « راحتنا » من الامن ، من الاحساس الهادىء بالاستقرار ، بعيدا عن الخوف من ان نستيقظ يوما لنجد أنفسنا نحمل الخيام . نجري وراءها . تحت أي سماء وعلى أية أرض . ليدفع القلم سيالا يفيض بالمشاعر والامنيات على بطاقة تصلك وانت تسبح في ميناء « حيفا » او تستجم في « تل أبيب » ..

وتعود القهوة من جديد ، تهتز في الفنجان ، تطبعه بلونها الاسود الداكن لتستقر على شفاهنا أسى وخيبة مرة المذاق .

لا تقرب المنبهات ، اعصابك تعبة ، ادركها الوهن ـ قال الطبيب ـ، وها أنذا أحس بنفسي مشدودا متوترا كنابض دميـة احسن تعبئتها فانطلقت في دوامة المعايدات تصدم بيتنا ، وتصطدم بآخر الى ان تتوقف امام حاجز كبير اعترض سبيلها لم تستطع ان تتخطاه .

الحاجز الكبير ، بيتنا . لا يجد المفتاح اليه السبيل ، وأنا واقف بالباب ، كاللوح ، كجدار من خشب ، كقطعة الباب .

زوجي تسبقني اليه ، تفتحه ، اتهالك على المقعد القريب ، الراحة تغمرني ، لقد انجزت بل اجهزت على عدد لا بأس به من الاقرباء والاصحاب .

اليوم ثالث العيد ، نهايته الاخيرة ، منجزات اليوم الثاني كانت رائعة ممتعة ، فكري صاف متقد كالشعلة ، سأهرب .

ـ أريد ان ازور رفاقي ...

نظرة الاب الخبير فيها شك عميق ، تريد ان تثنيني عن عزمي ، لكنني كنت في الشارع قبل ان يترجم الشك الى حركة ، الى أمر بالتوقف .

جميل ان يكون ذهن الانسان فارغا كصفحة بيضاء ، وها أنذا اتسكع على مهل ، اعد الدكاكين المغلقة ، أتسلى برؤية الاعلام والزينات، وأقرأ الفرحة المكتوبة على وجوه الاطفال السعداء ، الملابس جديدة زاهية ، والاعيب المسلية تغري النقود بالتساقط في ايدي باعة المناسبة وهم منتشرون على الارصفه والطرقات ...

ما أروع الحياة ، وما الطف الصغار ، واقربهم الى الفؤاد .

رأسي قنبلة تنفجر ، تصدم جسمي ، تهزه بعنف .

تطلعت الى السماء ، تلفت حولي ، الاطفال يضحكون فرحين ، الطائرات لا تقصف ، عمود الهاتف يرتفع امامي حديديا قاسيا ، وغشاوة حمراء تغطي عيني ، تسيل على وجهي ساخنة ازجة .

أخي يخفض رأسه ، صوته القوي العاتب يضعف ، يتراجع ، يضمه الغلاف يزحف .

العطر المذهب بطاقة أختي ، تجري خلفه ، تختفي وراءه ، تحتمي بالدرج البارز من فتحة الطاولة ، تنضم الى التهاني المكومة منذ قرابة العامين تنتظر الجواب .

بطاقتي الطويلة أمامي على المكتب ، مأساة جيل عميقة ، مخيفة ، ثقيلة ، أي بريد سينقلها أي ساع يقوى على حملها ؟! .

اجداث الميتين ، نعوش الشهداء ، لا تعيد اليها الحياة ، لا ترفعها الايدي الهزيلة ، بل أيد قوية مؤمنة ، تلمس جبهة الشمس ، تمسح عنها الغيوم لتشرق ، ستشرق شمسنا ، وتأتي اليك بطاقة العيد يا اخي حمراء مذهبة على متن صاروخ ، او قذيفة مدفع .

حلب — محمد رؤوف بشير

الكواكبي

المفكر الثائر

إسهام في دراسة الإسلام الحديث

عرف الاسلام خلال قرون نوعا من الجمود القاتل تحول فيها الى عقيدة منكمشة على ذاتها ، ضيقة الافق ، ، حتى ظن ان الطاقة الدينامية في الاسلام قد استنفدت ، وانه بالتالي بات مقصرا عن مجاراة التطورات العصرية في مختلف الميادين .. الى أن ظهر أول رد فعل عصري في جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الوهاب ، ثم تلته ردود الفعل في شتى الاقطار الاسلامية : الحركة السنوسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

في هذا الجو الفكري العنيف نشأ الكواكبي مفكرا ثوريا حرا، وجاب البلاد العربية الاسلامية باحثا ومنقبا، ثم وضع لنا كتابيه اللذين ركز فيهما ثورته على الجمود وآراءه الاصلاحية : أم القرى ، وطبائع الاستبداد .

وهذا الكتاب الذي الفه المستشرق الفرنسي نوربير تابيير وترجمه علي سلامة دراسة قيمة لآراء هذا المفكر الاصلاحي الكبير ونقد نزيه لها . وهو بحق مساهمة فعالة ونموذج يحتذى في سبيل دراسة مفكري الاصلاح في العصر الحديث دراسة حرة بناءة.

ويتضمن الكتاب تلخيصا وافيا لكتابي الكواكبي الشهيرين : أم القرى وطبائع الاستبداد .

صدر حديثا — ٣٥٠ ق.ل